العرب أول الفلكيين

للأستاذ عبد الحق فاضل

نعم ، انما نقصد ان نقول انهم (اول) الفلكيين في التاريخ الانساني ، على ما يظهر ، لا اعظمهم شانا ولا ابعدهم صيتا ، لان بعد صيتهم وعظمة شانهم في العلوم عامة وعلم الفلك خاصة ، خلال عصور الازدهار الاسلامية ، منقبة لم يعد يجهلها الا جاهل .

ومن بقايا تجوابهم واستكشافاتهم في القارة السماوية ، خلفوا لنا من آثار اقدامهم في اللغات الاوربية عددا كبيرا من الالفاظ العربية كأسماء النجوم ومصطلحات الفلك ، ومنها في الانكليزية مثلا : Algedi (الجدي) ، Altair (الطائر)، Algieba (الجبهة) ، Algenib (الجنب) ، Aldaberan (الدبران) ، Betelguese (منكب الجوزاء) ... Nadir (النظير) ، Zénith (السمت ، سمت الراس) ، Azimuth (السموت ، سمت السموت) ...

كذلك لا نقصد بقولنا ان العرب اول الفلكيين حتى الاكديين العرب (وهم قدامى البابليين) بالرغم من أن ابناء الرافدين هم الذين وصلتنا منهم اقدم المعارف الفلكية مدونة ومدروسة ، وهي اساس تقسيماتنا الزمنية الحاضرة للسنة والشهور والساعات ... بالاضافة الى معرفتهم سبع كواكب سيارة ومن عددها هذا قسموا الايام اسابيع ...

وشيء شبيه بذلك يمكن ان يقال عن قدامى ابناء النيل الذين اتضح من الدراسات الحديثة للغتهم انهم ساميون ، اي عرب .. بعد ان كان المظنون انهم حاميون وهؤلاء ايضا عرب لكنهم ابعد نسبا اي اقدم عهدا بمغادرة الجزيرة العربية . بل لقد اثبتت لنا دراستنا اللغوية ان الاريين ايضا ينتمون الى هذه الجزيرة العربية المقفرة الولود !

غير ان الذي نقصده بقولنا ان العرب اول الفلكيين هو ان سكان **العربة** (= الجزيرة العربية) قد كانوا على درجة فائقة من الاهتمام بمراقبة النجوم والعلم بحركاتها المتشابكة ومواقيتها الدورية منذ العهود الحجرية المجهولة .. قبل عهود التدوين وقبل اختراع الكتابة وقبل ان يتحضر النيليون والرافدانيون بالوف السنين .. اي منذ نحو عشرة آلاف سنة .. ان لم نقل اكثر !

هذه الحقيقة المذهلة تخبرنا بها اللغة على كل حال .

ان لفظة (**الآن**) تعني الوقت ومنها (**الاوان**) . والفعل هو (آن **اينا**) اي حان الوقت و (آن **اونا**) اي تمهل في المشي ، واصل المعنى قضى وقتا في المشي اي من معنى الوقت ايضا .. ولا سيما ان (**الاين**) كذلك يعني التعب ، الذي يسبب التمهل في المشي .

وقـــد تطـور (**الأون**) فصار ينطـــق مقلوبا (**النـــوء**) . ومما يؤيد ان (الأون) كان يعني الوقت قديما هو ان مقلوبة المستحدث منـه أي (النـــوء) ما زال يعني (**الآن**) في الانكليزية بصورة (now)

وقـــد كان من معاني (النوء) عند العـــرب: **سقوط نجم من المنازل في المغرب وطلوع رقيبه وهـو نجم يقابله من ساعته في المشرق في كل ليلة الى ثلاثـة عشر يوما . وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنـة ما خلا الجبهة فان لها اربعة عشر يوما .. والانـواء كانت عندهم ثمانية وعشرين معروفة المطالع في ازمنة السنة كلها يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلـة (1) نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابلـه في المشرق من ساعتهوكلاهما معلوم مسمـى . وانقضاء هذه الثمانية وعشرين كلها مع انقضاء السنة ثم يرجع الامر الى النجم الاول . وكانت العرب في الجاهلية اذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لابد من ان يكون عند ذلك مطر او رياح فينسبون كل غيث يكون عند ذلك الى ذلك النجم فيقولون « مطرنا بنوء الثريا او بنـوء الدبران »** ــ (المنجد ــ مادة : **نـــوء**)

وليس من المعقول ان القوم الذين لهم كل هـذه المعرفة الدقيقة عن (الانواء) ليست لهم معرفة دقيقة اوسع نطاقا في شؤون فلكية اخرى ، وانما هذا شأن اناس كانوا يرقبون النجـــوم ويرصدون حركاتهـــا ومواضعها خلال ايـام الحول ويحـــددون العلاقات المعقدة بين بعضها وبعضها في المكان من رقعة السماء وفي الزمان من مدار السنة .. بطريقـــة يسعنـــا مطمئنين ان نسميها (**علميـــة**) . وان كـان فـــي معلوماتهم شيء من خطأ فتلك سجية (العلم) دائما . وستأتي اجيال تجد في علم جيلنا هـذا الكثير مـــن الاخطاء في الفلك وغيره .

ولسنا ندري الآن الى اي حد كانوا يستفيدون من هذه المعرفة الفلكية في حياتهم العملية بالاضافـة الى اهتدائهم بها في اسفار البراري وملاحـة البحار ، لكننا نعلم ان امثال هذه المعلومات الفلكية ما زالت من المعارف العامة في مختلف انحاء الجزيرة العربية حيث يتحدث حتى الرعاة والعامة من الناس عن حركـات النجوم ومواعيدها ويقرنون بهـــا المواسم المناخيـــة والنباتية والحيوانية والتجارية والصحية ...

والاغلب ان هذا تراث موروث عن الجاهلية .

لكن اصطلاح (الجاهلية) انما يعني العهد العربي الوثني القريب من عهد ظهور الاسلام . فالى اي امـد يمكننا ان ندفع هذه المعلومات الفلكية الثمينـــة الى وراء ؟ الف عام ؟ الفي عام ؟ ثلاثة آلاف ؟ ..

ثم من الذي يقول ان هذه المعرفة من استنباط العرب انفسهم لا من مقتبساتهم عن جيرانهم المصريين والاكديين ؟

اللغة هي التي تقول ذلك . بل انها تزعم ما هو ادعى الى الدهشة والعجب . تزعـم ان المصريـــين والاكديين هم الذين اقتبسوا معارفهم الفلكية الاولى عن ابناء المعربة الاقدمين !

يظهـــر مـن القرائـــن الترسيسية في البحث اللغوي (2) ان العرب استعملوا كلمة (**الآن**) ايضـــا بمعنى النوء ، ولا غرابة في ذلك فان المعجم العربـــي حافل بالالفاظ التي تحمـــل المعانـــي المتشابهـــة والمتواشجة والمغلوطة والمتضادة مما يعرفـه كل ذي المـام ولو يسير بهذه الامور . فمن معنى تمام السنة عند عودة النجم (النوء) الاول الى الظهور اطلقـــوا على السنة كلمة (الآن) . وان كان هذا المعنى قـــد ضاع من الكلمة بصيغتها هذه في عربيتنا المعجميـــة الباقيـــة فان صيغتها هـــذه (آن an) بنفسهـــا ما زالت تعني السنة في الفرنسية ! اما في العربية فقد صارت تنطق (**عـــام**) !

ومن معنى تجدد الانواء استعملوا كلمة (النوء) بمعنى الجديد ، وهي باقية بهذا المعنى في الفارسيـــة بصيغـــة (نـــو ــ naw) ومنها (نوروز) : اليوم الجديد ، اي راس السنة . وتنطق الكلمة في الانكليزية (نيـــو ــnew) ويؤثلونها (= يؤصلونهـــا) من

---

1) في الاصل ثلاثة عشر ليلة ، وهو من الاغـــلاط المطبعية فيما يظهر .

2) الترسيس طريقة لنا في دراسة اللغة تعني البحث عن رس الكلمة اي بدايتها منذ نطق بها الانسان الاول تقليدا لاحد الاصوات الطبيعية ، مع تعقيب تطورات الكلمة حتى اصبحت على الصيغة التي تشكلت بهـــا في معنى حديث قد يكون ثقافيا راقيا . وقد اوضحنا ذلك بعنوان « علم الترسيس » في مجلـــة « اللسان العربي » ــ الرباط ــ العدد : 5 غشت (آب) 1967.

السكسونية (neowe) وقد وردت قبل ذلك في الاغريقية بصورة (**نيوس** ـ neos) وفي اللاتينية بصيغة (**نوفوس** ـ novus) ، وهي في الايطالية (**نوفه** ـ nove) وفي الفرنسية (**نوفوه** ـ nouveau) . ومعلوم ان حرف السين زائد في آخر الكلمتين الاغريقية واللاتينية يلحق بالاسماء عندهم ، وصلب الكلمة فيهما النون والواو فحسب .

ومن معنى الرياح والتغيرات الجوية ظهرت في بعض الدارجات العربية صيغة (**النو**) ـ بتشديد الواو ـ بمعنى الحالة او الطور او المزاج .

وظهرت كلمة (**التنوع**) تعبيرا عن كل ذلك فصار العرب ينطقون (النوء) بالعين (**النوع**) ـ على طريقة بعضهم في العنعنة ـ بمعنى الصنف ، على اعتبار كل (نوع) جديدا او مغايرا لسواه من الانواع ، ومن هنا كان (التنويع) يتضمن شيئا من معنى التجديد والتغيير . و (النوع) تشبه صيغة (نو) ـ المشددة ـ بالدارجة ، وصيغة (نو) ـ المخففة الساكنة ـ بالفارسية .

ومن هذا المعنى توجد في الانكليزية (novel) التي تعني الطريف والنادرة والقصة ، و (novelty) التي تعني البدعة والطرافة .. وكلتاهما من الفرنسية وتنطقان فيها nouvelle و nouveauté وهما من nouveau (جديد) المنحدرة من اللاتينية المذكورة آنفا .

ومن معنى الامطار التي كانوا يعتقدون انها تقترن بتبدل الانواء صار (النوء) منذ العهد الجاهلي يعني في العربية **المطر** . و (**علم الانواء**) يعني عندنا اليوم علم تعرف الاحوال الجوية وله في كل قطر خبراء وديوان مخصوص يرتبط بالملاحة الجوية على الاخص

ومن معنى الرياح والامطار صار البحارة العرب منذ القدم فيما يبدو يطلقون (النوء) على اعاصيرهم وتقلبات اجوائهم البحرية ، وهذا هو مفهوم الكلمة اليوم عند سواد القراء مما يدل على اثالته . وادل من ذلك على اثالة هذا المفهوم الملاحي لكلمة (النوء) هو انها تعني السفينة في الفارسية بصيغة (**ناو**) ! وهي في الاغريقية (naus) ، وفي اللاتينية (navis) ، وفي الفرنسية (navie) ، وفي الايطالية (nave) . ومنها في الانكليزية (navy) اسطول او قوة بحرية ، و (naval) اسطولي او سفيني .

ومن معنى السفينة في العربية (**النوتي**) « ملاح السفينة في البحر خاصة » .

وهذه الالفاظ بمعانيها المتطورة من لفظة (النوء) ومن معاني مجموعة الانواء وتجددها وارتباطها على قولهم بمناخ الارض ـ حديثة طبعا بالنسبة الى (النوء) الذي استحدثت منه . ولا ندري كم من الاجيال انقضت حتى استحدثت هذه الالفاظ من النوء لكن الاغلب انها كانت اجيالا طوالا . واقدم من (النوء) كلمة (آن) التي تعني السنة في الفرنسية ، والتي من لفظها نشأت الفاظ : العام والاون والنوء نفسه .

والذي يعتقده الباحثون ان الجزيرة العربية كانت غابة كثيرة الماء والنبات والحيوان والانسان ثم اخذ الجفاف يعمها منذ عهد انقضاء الحقبة الجليدية الاخيرة اي قبل نحو عشر الف سنة .

والذي نراه شخصيا ، بل الذي ارتنا اياه اللغة ، ان (**الآريين**) هم اوائل العرب المهاجرين الذين نزحوا من معربتهم منذ اخذ يكتسحها الجفاف والمحل وانطلقوا الى العراق ومن ثم هاجر بعضهم الى ايران وما وراءها واستقر الباقون في العراق ، كما انطلق آخرون الى سورية حيث استقر من استقر واستمر في الهجرة من استمر غربا الى مصر وما وراءها ، وشمالا الى البر الاناضولي وما وراءه ، اي اوربا . فنحن لا نعتقد ان جميع الآريين قد قدموا اصلا من الهند او اواسط آسيا ، بل لابد ان الكثيرين منهم قدموا راسا من المعربة في موجات مختلفة عن طريق آسيا الصغرى وشمالي افريقيا (ناهيك بالساحل السوري الذي انطلق منه الفنيقيون فيما بعد في كل اتجاه) .

ثم كانت هجرة (**الحاميين**) الى افريقيا شماليها وشرقيها .

ثم كانت هجرة (**الساميين**) الى الهلال الخصيب وشرقي افريقيا .. فاستقروا مع من كان قد استقر من اسلافهم المهاجرين الاوائل في العراق وسورية ومصر والحبشة .

ولا نستطيع الآن تحديد هذه الهجرات فهي متوالية ومختلطة ومتشابكة ومتعددة الازمنة ومختلفة الاتجاهات ، تكدس بعضها فوق بعض واندمج بعضها ببعض . الا انه كان من نتيجة المخيض هذه المجموعات اللغوية الثلاث : الآرية والحامية والسامية ، التي

يتضح مما تقدم انها مجموعات مكانية اكثر منها زمانية ، تمثل هجرات عربية قدمى امتزجت وتفاعلت على مدى الاجيال . وكل ما يسعنا ان نقوله ان تلك الهجرات بدات منذ بدا المحل يلتهم الجنة المعربية قبل اكثر من عشرة آلاف سنة . وثمة حقيقة تاريخية خطيرة اخرى يمكننا ان نستشهد بها لتؤيد لنا هذا الامر وهي ان التحريات التنقيبية فى العراق تنبيء ان هذا التاريخ يتفق مع بدايات عهد الاستقرار السكني فى ارض الرافدين وبناء المساكن المتقاربة في جماعات بشرية زراعية ـ اي بداية تاسيس الحضارة. وذلك فيما يظهر اول عهد الانسان بانشاء القرية .. ثم المدينة . (مع احتساب القرون التمهيدية التي لابد ان يكون المهاجر العربي قد قضاها قبل ان ينتقل من حياة الترحل الى حياة الاقامة)

وبتعبير آخر ان اولئك المؤسسين هم العرب الاوائل الذين استوطنوا العراق بينما استمر شطر منهم فى المسير شرقا عبر بلاد فارس او شمالا عبر الاناضول ، فكانوا اوائل الاريين . وكون الاريين شعبة من نفس القوم الذين اسسوا الحضارة الرافدانية يبرئهم من وصمة العجز عن انشاء الحضارة ابتداءا ، ولو انهم فى الواقع قد اقتبسوا كل حضارة لهم قديمة فى الشرق الآسيوي والغرب الاوربي من حضارة اخوانهم فى وادي الرافدين ، على ما يقول الباحثون .

فما دامت تلك الالفاظ البحرية والزمانية ـ التي اعتبرناها حديثة بالنسبة الى كلمة (النوء) ـ موجودة فى اللغات الآرية فمعنى ذلك ان العرب قد عرفوا (الانواء) الفلكية ، لانقول بتلك الدقة الجاهلية حتما ولكنهم عرفوا على كل حال شيئا عن تعاقبها وعلاقاتها التي منها انبثقت تلك الالفاظ ـ قبل ان ينسلخ الآريون من المجموعة العربية فى المنطقة ، منذ عشرة آلاف سنة .. او اكثر . ولو وجدت هذه الالفاظ فى الآريات الاوربية فقط لجاز القول انها قد تكون حديثة الاقتباس عن طريق الكنعانيين (الفنيقيين) مثلا ؛ لكن وجودها فى نفس الوقت فى الفارسية وهي لغة آرية اصيلة (وليست فرعا من السنسكريتية كما كان يعتقد سابقا) يدل على قدم هذه الالفاظ ودخولها الآريات منذ عهد الهجرات الاولى ، ولعلها موجودة في السنسكريتية ايضا، لكن فقدان المراجع لدينا فى عربيتنا الراهنة يحول دون تحققنا من ذلك .

فهل من غرابة ان ينبغ من العرب بعد ذلك ابناؤهم من الرافدانيين والنيليين فى هذا الفن ويخلفوا لنا اقدم القواعد المعروفة لعلم الفلك ويصبحوا اساتذة البشرية فيه ؟ ولا غرابة من ثم ان يطلق الشمريون (السومريون) لفظة (آن) على قبة الفلك نفسها اي السماء وهي اعظم الآلهة (أبو الآلهة) عندهم وعند اخلافهم الاكديين الذين كانوا ينطقون الاسم (آنو) ـ بضم آخره على طريقتهم .

قلنا مرارا ، ونقولها مرة اخرى : ان درس اللغة اشبه بعلم التنقيب الآثاري ، قادر على ان يكشف لنا حتى مالا يستطيع التنقيب الآثاري نفسه ان يكشفه من الحقائق التاريخية المجهولة التي خرجت عن متناول المنقب الا انها لاتزال فى متناول اللغوي وحده .. لان ابناء الغابة المعربية لم يسجلوها في مسطورات لهم كتابية ولا نقوش جدارية ولا صور كهفية ولا شقف من الفخار .. وانما سجلوها لنا تسجيلا مفيدا عفويا فى لغتهم ، وانصرفوا .

وهذا الامر الذي تقدم بنا حديثه يمثل واحدة من الحقائق التاريخية ـ بل القبتاريخية ـ الخطيرة ، التي انعم علينا بها (الغوص) فى (بحر) اللغة .

ليت المرحوم حافظ ابراهيم يعلم اية نبواة اعجازية قذف فى مسمع الدهر ساعة حكى لنا ان اللغة العربية دام عزها قالت ذات يوم :

انا (البحر) فى احشائه الدر كامن

فهل سالوا (**الغواص**) عن صدفاتي؟

(نزيل المغرب العربي) **عبد الحق فاضل**